## التجديد في المعاني والأفكار

اتسعت الثقافة في العصر العباسي ، وكثرت منافذها ، وتعددت ألوانها ، وقد ظهر أثر ذلك جلياً في الحياة الفكرية ، والشعرُ جانبٌ من هذه الحياة ، اذ نراه يزدحم بالمعاني والأفكار ، والصور والأخيلة . ومن يراجع دواوين الشعراء والجاميع الأدبية يجدُ تلكَ الحقيقةَ واضحةً للعيان .

لقد غاص الشعراء في بحر الأفكار ، وتعمقوا في أغواره ، واستنبطوا لآليَّ جديدة ، ودرراً ثمينةً تعجب الناظر وتُبهر السامع ، لما فيها من دقةٍ وروعةٍ وبهاء ...

إنَّ الصور الشعرية التي نلمسُ فيها الجدَّةَ والطرافة كثيرة في رياض الأدب العباسي . فمن أزاهير تلك الرياض الأبيات الآتية لبشار بن برد التي أعجبَ بها أبو عمرو بن العلاء وعدَّ بشاراً من أفضل الشعراء لتجديده وابداعه فيها ، قال(٣٦)

لم يطلْ ليلي ولكن لم أنَمْ ... ونَفَى عنّي الكرى طيفٌ ألَمْ
واذا قلتُ لها جُودي لنا ... خَرجتْ بالصمتِ عن لا ونَعَمْ
نَفْسي ياعبدُ عنّي واعلمي ... أنّني ياعبدُ من لحم وَدَمْ
إنَّ في بُردَيَّ جسماً ناحلاً ... لو توكأتِ عليه لانهدمْ
ختم الحبُّ لها في عُنُقي ... موضعَ الخاتم من أهلِ الذِّمَمْ

ولعلَّ أبا عمرو بن العلاء استساغ البيت الأخير ، لأنه حقاً صورة فريدة وتشبيه نادر اضافة الى أنَّ لغة الأبيات سهلة وأسلوبها مأنوس يتعاطفُ مع القلب .

ومن الشعر الجميل المتناهي في الرقَّةِ والسلاسة قولُ دعبل الخزاعي :(٣٧)

أين الشَّبابُ ، وأيةَ سَلَكا ؟ ... لا ، أينَ يُطلبُ ؟ ضَلَّ ، بل هَلَكا
لاتعجبي ياسَلْمُ من رَجُلٍ ... ضحكَ المشيبُ برأسِهِ فبكى
ياسَلْمُ ما بالشَّيبِ مَنْقَصَةٌ ... لاسُوقةٌ يُبقي ولا مَلِكا
ياليتَ شعري كيفَ نومُكما ... ياصاحبيَّ اذا دمي سُفِكا
لاتأخذا بلحاظِ مُقلتي أحداً ... قلبي وطرفي في دمي اشتركا

---

(٣٦) الأغاني ٣ : ١٥٠ ، ١٥١ .
(٣٧) ديوانه ص ١١٧ .

والبيت الثاني هو الذي أوصل دعبلاً بالرشيد . فقد غنّى ابنُ جامع المقطوعة التي تضمّ هذا البيت بين يدي الرشيد « فطربَ . وسألَ عن قائل الشعر . فقيل له : دعبل بن علي . وهو غلامٌ نشأ من خُزاعة . فأمرَ باحضار عشرة آلاف درهم وخلعة من ثيابه . فأحضر ذلكَ . فدفعه مع مركب من مراكبه الى خادم من خاصّته . وقال له : اذهبْ بهذا الى خُزاعة فاسأل عن دِعبل بن علي . فاذا دُلِلْتَ عليه فاعطه هذا . وقلْ له : ليحضرْ ان شاءَ . وانْ لم يُحب ذلكَ فدعه . وأمر للمغني بجائزة . فسار الغلام الى دعبل . وأعطاه الجائزة . وأشار عليه بالمسير اليه . فلما دخل عليه وسلّم أمره بالجلوس فجلس . واستنشده الشعر فأنشده اياه . فاستحسنه وأمره بملازمته وأجرى عليه رزقاً سنياً »( ٢٧٨ )

وبرز مسلم بن الوليد في ابتداع المعاني . وكثيراً ماذكره المأمون في مجالسه وفضله على غيره من الشعراء . ومن شعره الذي أعجبَ به النقادُ والقرّاءُ البيت الآتي :( ٢٧٩ )

تجودُ بالنفسِ اذ ضَنَّ الجواد بها والجودُ بالنَّفسِ أقصى غايةِ الجود

وكذلك اشتهر أبو تمام بفتقِ أكمام الفِكرة وتزيينها باللفظ الجميل والجرس . الرقيق . مثل قوله في فضل الحاسد على المحسود( ٢٨٠ ) :

واذا أرادَ اللهُ نشرَ فضيلةٍ طويتْ أتاحَ لها لسانَ حسود
لولا اشتعالُ النارِ فيما جاوَرَتْ ماكانَ يُعرفُ طيبُ عَرْفِ العُود

وبلغ ابن الرومي مرتبة عالية في التجويد باللفظ والعبارة . والتعمق في المعاني . وابتداع الصور الجديدة . مثل قوله في الغزل( ٢٨١ )

نظرتْ فأقصدتِ الفؤاد بسهمها ثم انثنتْ نحوي فكدتُ أهيمُ
ويلاهُ إنْ نظرتْ وانْ هي أعرضتْ وقعُ السِّهام ونزعهنَّ أليمُ

ومما يستحسن في هذا المجال بيتان لعبد الله بن محمد بن سالم المعروف بابن الخياط . قال أبو الفرج الأصبهاني :( ٢٨٢ ) « دخل على المهدي فمدحه . فأمر له بخمسين الف درهم . فقال يمدحه :

---

( ٢٧٨ ) الأغاني ٢٠ : ١٧٩ .
( ٢٧٩ ) ديوانه ص ١٦٤ .
( ٢٨٠ ) ديوانه ١ : ٣٩٧ .
( ٢٨١ ) ديوانه ٦ : ٢٢٩٧
( ٢٨٢ ) الاغاني ٢٠ : ١ .

أخذتُ بكفّي كفّة ابتغي الغِنى ولم أدرِ أنّ الجودَ من كفّه يُعدي
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغِنى أفدتُ وأعداني فأتلفت ماعندي

فبلغ المهدي خبرُه . فأضعفَ جائزته . وأمرَ بحملها اليه في منزلة » .

ان خيال الشاعر في العصر العباسي حلّقَ في آفاق بعيدة . بعد ما شاهد ماصنعته يد الحضارة . وما أوجدته الحياة الجديدة من ألوان الترف والنعيم لم تكن معروفة سابقاً . الى جانب الطبيعة الجميلة المكتسية بالألوان الزاهية . كما نرى مثلاً في قول أبي تمام يمدح أبا سعيد الثغري ويذكر بعض حملاته على الأعداء (٢٨٣)

غادرتَ أرضهمُ بخيلك في الوغى وكأنّ أمنعها لها مضمارُ
وأقمتَ فيها وادعاً متمهّلاً حتى ظننا أنّها لك دارُ
وأرى الرّياض حواملاً ومطافلاً مُذْ كنتَ فيها والسّحابُ عِشارُ
أيامنا مصقولةٌ أطرافُها بك واللّيالي كلُّها أسحارُ
تندى عفاتُك للعفاةِ وتغتدي رُفقاً الى زوارك الزوارُ
همّي معلّقةٌ عليك رقابُها مغلولةٌ إنّ الوفاءَ إسارُ

وانظر الى صورة الخمرة عند المكوك (٢٨٤) :

كأنّ يدَ النّديم تدير منها شُعاعاً لا يحيطُ عليه كانُ

وقريب من هذا المعنى قول ابن المعتز (٢٨٥) :

تخفي الزُّجاجةُ لونَها وكأنّها في الكفّ قائمةٌ بغير إناء

ولاحظ هذه اللوحة الشعرية الملونة المتحركة التي قدّمها ديكُ الجن في أبياته الجميلة الرقيقة لوصف الديك : (٢٨٦) :

أما ترى راهبَ الأسحارِ قدهتفا وخشَّ تغريده لما علا الشّغفا
أوفى بصبغ أبي قابوسَ مفرقَه كدرّة التّاج لمّا أنْ علا شرفا (٢٨٧)
مشنّفٌ بعقيقٍ فوقَ مذبحِه هل كنتَ في غير أذنٍ تعرفُ الشّنفا

---

(٢٨٣) ديوانه ٢ : ١٨١ .
(٢٨٤) شعره ص ٧٢ .
(٢٨٥) شعره ٢ : ١٨ .
(٢٨٦) ديوانه ص ١٧٧ .
(٢٨٧) جاء في ديوان المعاني ٢ : ١٣٧ ( وقوله صبغ أبي قابوس ، يعني شقائق النعمان ) .

لما أراحتْ رعاةُ اللّيلِ عازبةً من الكواكب كانت ترتعي السّدفا
هزّ اللواءَ على ماكانَ من سِنَةٍ فارتجّ . ثم علا . واهتزّ . ثم هفا
ثمّ استمرّ . كما غنّى من طَرَبٍ مُرْيحُ شَرْبٍ على تغريده وضفا(٢٨٨)
اذا استهلّ استهلّتْ فوقه خَضَلٌ كالحيّ صيخ صباحاً فيه فاختلفا

ومن صور ابن الرومي البديعة الزاهية قوله في وصف قوس السحاب(٢٨٩) :

يُطرّزها قوسُ السّحابِ بحمرةٍ على أخضرٍ في أصفرٍ وسطَ مُبيضّ
كأذيالِ خَوْدٍ أقبلتْ في غلائلٍ مصبّغةٍ والبعضُ أقصرُ من بعضِ

ومن الشعراء من أضفى على شعره أدلّة منطقية . اكتسبها من الثقافة التي تلقاها . أو من مشاهداته وتجاربه الخاصة . يريد بها اقناع السامعين بما جادت به قريحته . مثل قول أبي تمام في الهرم(٢٩٠)

لاتنكري منه تخديداً تجلّلهُ فالسّيفُ لا يزدرى إنْ كان ذا شُطَبِ

ومن ابتداعات ابن الرومي التي لم يُسْبَقْ اليها قوله(٢٩١)

كلُّ امرىء مدحَ امرءاً لنواله فأطالَ فيه فقد أراد هجاءَهُ
لو لم يقدّرْ فيه بُعْدَ المُسْتقى عند الورود لما أطالَ رشاءَهُ

واستعان الشعراء في هذا العصر بالتجسيد والتضخيم . والمبالغة والتهويل . وهذه الأمور - وان لم تكن من مستحدثات هذا العصر - أصبحتْ سمةً بارزةً اتكأ عليها الشعراءُ في كثير من الأحيان . ولا سيما في المديح والغزل . ويبدو أن المتلقّين كانوا يرتاحون لها ويهشون لسماعها . مثل قول منصور النمري في الخليفة هارون الرشيد(٢٩٢)

إنّ المكارمَ والمعروفَ أوديةٌ أحلّك الله منها حيثُ تتّسعُ
اذا رفعتَ امرءاً فالله يرفعُهُ ومَن وضعتَ مِن الأقوام متّضعُ

---

(٢٨٨) المريح : الشديد المرح . الشرب : القوم الشاربون . ضفا : استطال مستمراً .
(٢٨٩) ديوانه ٤ : ١٤١٩ .
(٢٩٠) ديوانه ١ : ١١١ .
(٢٩١) ديوان ١ : ١٤١ .
(٢٩٢) الأغاني ١٢ : ١٤٧ .

وقول بشار بن برد في الفخر(٢٩٣)

اذا ماغضبنا غضبةً مضريّةً هتكنا حجابَ الشمسِ أو تُمطرُ الدّما

وقوله في الغزل(٢٩٤) :

سلبتِ عظامي لحمها فتركْتها عواريَ في أجلادِها تتكسّرُ
وأخليتِ منها مُخّها فتركْتِها أنابيبَ في أجوافِها الريحُ تصفرُ
خُذِي بيدي ثم ارفعي الثوبَ فانظري ضَنًى جَسَدي لكُنني أتستّرُ

والى جانب المبالغة يلاحظُ القاريءُ حرص كثير من الشعراء على المحسنات اللفظية والمعنوية . اذ عدُّوها من مراتب التجديد والابداع . وقد جاءت في شعرهم أحياناً مقبولة . لها وقع حسن في النفس . وأحياناً مرذولة لا جمال فيها ولا بهاء وبعيدة عن الذوق السليم . فمن الصور اللطيفة التي تبدو فيها الصنعة محببة قول الحسين بن مُطير الأسدي(٢٩٥) :

بيضاءُ تسحبُ من قيامٍ فَرْعها وتغيبُ فيه وهو جَعْدٌ أسحمُ
فكأنها منه نهارٌ مُشْرِقٌ وكأنّه ليلٌ عليها مُظلمُ

وقول بشار بن برد في عذوبة صوت الحبيبة :(٢٩٦)

وكأنَّ رجعَ حديثها قِطَعُ الرّياضِ كُسِينَ زهْرا

وهذه أبيات لأبي تمام تتداعى فيها المعاني وتتزاحم الصور يمدحُ بها أبا سعيد محمد بن يوسف الثغريّ ويذكر خروجه للقاء العدو(٢٩٧)

لقد أنصعت والشّتاءُ له وجْـ ـهٌ يراهُ الكُماةُ جهماً قطوبا
طاعناً منْخرَ الشّمال مُتيحاً لبلادِ العدوّ موتاً جنوبا(٢٩٨)
في ليالٍ تكادُ تُبقي بخدّ الشّمس من ريحها البليلِ شُحوبا

---

(٢٩٢) ديوان شعر بشار بن برد ص ١٩٩ .
(٢٩٤) نفسه ص ١١٤ .
(٢٩٥) شعره ص ٧٣ .
(٢٩٦) ديوان شعر بشار بن برد ص ١١٨ .
(٢٩٧) ديوانه ١ : ١٦٥ .
(٢٩٨) المعنى أنه يغزو بلاد العدو وهم في ناحية الشمال فيجيئهم بموت من ناحية الجنوب .

فضربت الشتاء في أخدعيه ضربة غادرته عوداً ركوبا (٢٩٩)
لو أصخنا من بعدها لسمعنا لقلوب الأيام منك وجيبا (٣٠٠)

ان غالبية الشعراء العباسيين كانوا مولعين بالتجديد الى جانب الاعتماد على الموروث . وهذا التجديد يعود الى التطور الاجتماعي الكبير الذي شمل جوانب الحياة المختلفة آنذاك . وكذلك التطور الفكري الذي أدى الى ثراء العقل وفتح الأبواب الكثيرة للخلق والابداع .